قرأت العدد الماضي من "آداب"

الأبحاث

بقلم : صلاح عيسى

يتضمن عدد حزيران من الآداب ، بحثين طويلين ، وملخصا وافيا لـ « حوارسوفييتي عربي حول الادب وافكار العصر والعلاقاتالثقافيه». الابحاث اذن قليلة مما يتيح الفرصة لعرض لما تتضمنه ومناقشـــــة لما تحتويـــه .

وبالرغم من قلة عدد الابحاث، فـان واحدا منها يطول ليصل الى احدى عشرة صفحـة من البنط الصغير . ذلك هـو بحث الاستاذ محمد شكري « مفهوم التجربة الادبية » . ولعل هذا البحث هـو اكثرالابحاث الثلاثـة مدعاة للتأمل والمراجعة . وهـو يضطرك لقراءته اكثر من مرة، لا لمتعته ـ ولو انـه لا يخلـو من المتعة ـ ولكـن لتشابكه وتعقده وكثرة ما به من افكار . وللاسلوب الخاص الذي اختاره كاتبه ، وهـو اسلوب كثيف ، يوحي بالعمق ، ولكنه يضر بالعرض .

والبحث ـ بعيدا عما به من استطرادات مرهقـة واستشهادات لا داعي لها ـ يعرض لفكرة هامة جديرة بالمناقشة ، هي « العلاقة بيـن الاجيال الادبية » او «الموقف من التراث » . وذلك من خلال التغيـر المستمر والحتمي في مفهوم التجربة الادبية بين « السلف »و «الخلف» او (بين الجديد والقديم) . وعند الاستاذ شكري فانه « من سـوء حظ الانسانية انها تحافظ على اعمالهـا الفكريـة كمـا يحافظ الاطفال على حطام لعبهم حتى بعـدانيثوروا على نوع التسلية التي تقدمهـا لهم . لتبرير هذا الاقتناء الفكري اخترعنا لـه صيغا لفظيه تحرسه من النسيان والسلف : التراث . الحرية الفكرية ، المقدسات .. الخ » . وهو مـا يدعـو للانزعاج ، ذلك ان « بعضهم ما يزال يضاجع رميمهذا التراث في الخيـال وفي الواقـع » .

ولا يمكـن ان نعتبر شهرة بعض الاعمال او بقاءها ، نموذجـا للمقاييس الجمالية الحقه والكاملة . ان عملا مـا قد يعيش لان كاتبـه « ادهشنا بتصوراته الفكريـة اكثر ممـا اقنعنا بفنيا » او « لانه كاتب موسوعيلايفهمه الا المختصون في اللغات الحيه والميتة وجنونالابداع». وبالنسبة للاجيال الجديدة من الادباء والفنانين فان المشكلة ليست هي مشكلة الموضوع « الذي قد يكـون جاهزا تمامـا في اذهانهم » ولكـن المشكلـة او الصعوبة هي « ايجاد الشكل الملائم لهذا الموضوع الهام » ذلك ان « التقنية هي التي تقيم الموضوع الادبي او الفني» .

وللاستاذ شكري رؤيته الخاصة للمقاييس النقدية .. فهـو يرى ان الاعتماد على « التقييم الادبي »لا يسلم دائمـا من المحاذير . كثيرا ما يخطىء التقييم الادبي في البدايـة . وقد يصحح النقد احكامه بعد ذلك ، ولكـن متأخرا بعض الشيء . ان تحديد العبقرية ليس رهينا بالتقييم الادبي . وانمـا « بمعاناة التجربة الذهنية والواقعية .وصبر التنقيح ومغامرة البحث عـن اشكال جديدة » . ومعاناة التجربـة الواقعية ، تعني « الارتباط باليوميومة الانسانية وهو ما يفعله الفنـان الخلاق » أما الفنان المرحلي فهـو « الذي ينتهـي بانتهـاء الزمـان الحضاري في عصر مـا » .مطالبا دائما بـ « عدم الاخلال بتوازنالكليات والجزئيات في عمله الادبي » . ولكـــن الواقعيين « المأخـوذيـن بالتفاصيل » ينسون اننا « لا نكتب لالتقاط صورة واضحة كاملـــة طبق الاصل لهذا العالم » . اذ انه « ليس هناك تطابق بين الشـــيء وادراكه » ونحـن « قادرون على استيعاب تجربة ما بعينها وتجسيمها بحيويتهـا اذ هي فقط سبب لخلق تجربة انسانية تسمـو على مستوى التسجيل كاحدى لوحات الطبيعـة الصامتة » .

والفنان يثبت نفسه ويؤكـد ذاته حيث هـو فنان اولا . وليس لمجرد انه داعيـة لقضيـة كبرى . فالفـن يعيش لا لان مبدعه قد اتيح له الحظ فعاش في ظرف تاريخي محدد ، او محتوى ظـاهـرة هامة للجميع فارتبط بها . ذلك « ان العبقريـة لا تنتهي الا لدى ذوي العقول الخاوية » ، والوطن الذي يخوض معركة تحرر ، لا يلهم العقول الخاوية شيئا ذا بال ، لكنه يلهم الفنان الاصيل ، « المعركة » « لا تخلق » هذا الفنان لكنهـا « تكتشفه » .

فاذا ماانتقل الباحث لمناقشة«مقاييس الحكم على الجيد والسيىء» اقر ان « الاعمال الادبيـة لا يحددهـا القياس كما يحدث في العلم » ولذلك فان « الاحكام النقديـة تبقى خاضعة لذوق الناقد والقارىء معا » والمسألة عند الاستاذ شكري « استفتاء شعبي » القارىء ضد الكاتب او مـع الكاتب ضد الناقد » . وبرغم ذلك فان رأي القـارىء قد تتحكـم فيه عوامل غير فنية « كالذين يجدون متعتهم الكبرى فـي قراءة الكتب التي تحقق لهم احلام الهروب من الحقيقة المؤلمة » .وكذلك رأي الناقد « الذي قـد يتحول الى آلة اليكترونية تخضع كل الاعمال الادبيـة لمنهاجواحد ، وايديولوجية معينة » ثم هـو ايضا يسعـــى لكسب جهـوده .

ما الذي يستطيع ان يقدمه الادب الجديد وسط كل هذا ؟.

هناك مشاكل محيرة . « ما هـو نوع الادب الملائم لعصر ؟». اكثر الكتاب الجدد يمارسـون عدة اجناس ادبيـة في وقت واحد قبل ان يستقروا . وهم يعيشـون بالفعل في عصر مختلف و « تحت رحمـــة الازمنـة المقبلة و « الهدم الذي يهددهم به غزو الحضارة الآلية يتجاوز بعث القلق في ديمومة الخلود الى المطلق » . والظواهر الادبية الغريبة التي نعيشهـا اليوم هي « رفسة للحضارة الكلاسيكية والرومانسية»لكن « حراس التراث يعتبرون هذه الفوضوية احدى الفترات المراهقة التي تمهـد لظهـور حضارة جديدة تمتد عبرهـا عودة الحضارات المنسية ». وهي في الحقيقة حكم بـ « ان التراث القديم لم يطعم نفسه بمـا فيه الكفاية ضد غزو الوباء الفكري الجديد » . وفي نفس الوقت فهـي دعوة لنـا للحذر لان « نفس الكارثة تنتظر عصرنا البسايكاديليكي مـع الانسان الاليكتروني ».

وملامح العصر واضحة « لغـة المنفى في الوطن ، الغربة وسط الزحام ، اسماء الرؤساء المكتوبة بالبراز على الجدران ، اختطـاف الطائرات ، أشعار الشباب المكتوبة بزيت المحركات المحروق ، الهيبة والرسـوم المرسومة بذيل حمار .. هي طابع عصرنا المتهم » . والعصر يموج بتيارات متعددة . بيـد ان هناك في النهايـة موقفينمتميزيـن من كل مـا يدور فيه . اولهمـا « موقف الرومانسي » والآخر « موقف الثوري » ان الرومانسي الذي يطمح لان يكـون محور العالم « يثـور ضـد الموت كفكرة ، كشقاء بشري ، ولكـن ليس من اجل تغيير حدوثه» لكـن الثوري« يكشف لنـا عـن الانسان المناضل الذي لا يموت كمـا تموت الحيوانات في المذبح » وما زال هذا الوباء ينخر في روح بعض الكتاب . ان الرومانسية لم تهزم بعد . الرومانسي متفرج « شاهـد فقطعلى عصر الاستشهاد » لكـن « الثوري يحمل معه شبابه الـــى المعركـة : فكرا وعملا » . الاول يعانق موته في استسلام آسفا او غير آسف لانه لا يستطيع ان يجعل حتى حبه ثوريا . « مأساة الرومانسي انه يخاف الموت لكنه يسعى اليه بشكل مـا بلا هدف . اما الثـوري « فيجعل من موته هدف حياة الآخرين »

ما هـو موقف الجيل الجديد من كل هذا ؟

« ان موقف هذا الجيل مـن التراث ، يتضمن المجاهرة للتخلص من آثار هذا التراث ، لانه « مفرط في الحساسية الجمالية ،الحسية والاخلاقية » ممـا اورث الجيل الجديد « كل مساوىء الافكار التي لن يشفى منهـا بسهولـة » . وهذا يتطلب من هذا الجيل ان يفهم تأثير الموروث الحضاري فيه وان يستمر في « الانسلاخ الذي بدأه حتى ولـو كـان سيقوده الى العدم » .

ومن المحتم على الجيل لا ان يغير الشكل والمضمون فحسب ولكـن ايضـا الحجم . لان العصر يفرض هذا اذ لم يعد لدى احد الطاقـة لقراءة المطولات . « ان طبيعـة التطور تجرفنـا الى التضاؤل والتلاشي في كل شيء طبيعتنا البشرية ، لغتنا ، مصيرنا ». وهذا الجيل ايضا مطالب لا « بكشف الاشياء وتسميتها » وانمـاايضـا « بالحكم عليها ». وهـو ما لا يمكـن التصدي له دون فهمها .

في الجزء الاخير مـن بحثه يطرح محمد شكري موضوعه بوضوح اكثر . فيؤكـد ان « محنـة الكاتب العربي اليوم هي انه مطالـب بتطوير تقنيته وموضوعه اكثر مـن اي وقت سابق . انه مزاحم منالكتاب الفريدين في الاصل وفي الترجمة التي تخطت مرحلة الاقتبـاس والتشويه » . وبالطبع فان هـذا يتضمـن شن الصراع ضد القديـم « الجيل الذي ثار على الكتاب والشعراء القدمـاء هـو نفسه الـذي صار اليـوم مـن اشد المحافظين ازاء مواهب جيل الاشتراكيةالماركسية بل ان هذا الانفصال احيانا يحدث حتى في بعض افراد الجيل الذي لم يتخط بعد سن الرشد الادبي » . والاستاذ شكري بعد هذا يصـوغ موقف الاديب العام بانه محكوم عليه بأن « يكون طبقيا ضديا : ان يعطف على البروليتاريا اذا كان برجوازيا وان يسمـو بطبقته الى البورجوازية ان كـان بروليتاريا » ..اذ ان « المطلوب هي الرفاهية التي ينبغي ان تكـون طبيعيـة . المطلوب هـو التساوي في الرفاهية وليس في الفقر».

والملاحظـة العامة على بحث الاستاذ شكري ، انه محاولة لصياغة مانفستو أدبي ..لكنها محاولة تنكبت سبيلها ، فاصبحت غيـر مفهومة . اذ سادتهـا رغبة شريرة في الاستعراض ، ولو احصينا عـدد الاعلام الذيـن ذكرهم او استشهد بهم على تأكيـد افكار ، قد تكـون صحيحة لكـن لا جديد فيها ـ لوجدنا عددهم كثيرا جدا ، مما يبعث على الدهشة الشديدة ، لـهذا الحرص المفتعل على ذكـر الاسمـاء والاعمال ، واقتطاف جملة من هنـا وكلمة من هنا لتأكيد اشياء قـد لا تكـون هناك حاجـة على الاطلاق لتأكيدها ، او قـد يكـون تأكيدهـا ممكنـا بوسائل اخرى . لقـد أرهق الاستاذ شكري القراء ، وعسر فهمه ، واظـن ان محاولتي لتلخيص بعض أفكاره ، لم تخل منالتشوش، اذ لا استطيع ان ازعم انني فهمت هذا البحث العميق ، ولعل المسالـة قصـور في ثقافتـي .

بيـد انني اود ان اقف عند الجزء الاخير مـن العرض الـذي قدمته لافكار الكاتب ، ذلك الذي يدعـو فيه الاديب ان يأخذ موقفـا ضديا « ان يعطف على البروليتاريا اذا كان برجوازيا وان يسمو بطبقته الى البرجوازيـة ان كـان بروليتاريا » . وهي دعوة مضحكة بالفعل، لا ادري كيف يريدهـا ان تتحقق عمليا . خاصة وان الاستاذ يعـود فيؤكد ان « المطلوب هو التساوي في الرفاهية وليس في الفقر » .هل طالب احد بالتساوي في الفقر ؟ !. من المؤسف حقا ان تكون نهايـة هذا الارهاق في متابعـة البحث ، هـو الاصطدام بافكار لا اظـن ان الاستاذ شكري وهو مـا هو عليه من ثقافـة (تشهد بها معرفتهالواسعة بكل هؤلاء الاعلام) ، يجهل انها غير واردة على الاطلاق وانهـا فاقدة لاي معنـى حقيقـي ! .

انسان يونيسكو الشقي ـ يوسفعبدالمسيح ثروة

ويحاول الاستاذ يوسف عبدالمسيح ثروة ان يستعرض رؤية يونيسكو للانسان . متابعـا ذلك بدقـة في مجموعة من اعماله المسرحية .فيرى ان جوهـر هذا الانسان هو « افتقاده لكل القيم العزيـزة عليه » وانعكاس هذا الفقدان « في وجدان انسان العصر وفي جميع فعالياتـه النفسية والفكرية ، في مسيرة حياته وفراغ هذه المسيرة من دوافـع التقدم » . وانسان يونيسكو الذي يعاني مـن القلق ويعيش في جـو من الرعب لا اول لـه ولا آخر ، هو انسان ثابت على هذه الحالة «لان يونيسكـو لا يستطيع ولن يستطيع ـ على حسب منطقـه ونعاليمه ـ ان يؤمن يومـا ما بوجود جاذبية حية على مثل هذه الارض ، تنعش وتحيي وتبعث الحركـة في هذا الوجود ،ليكـون للانسان ما يستحق التشبث به من معـان وقيم .. ومثل » . وهذا ما ينتهي بأن اي محاولة للبحث عـن خلل في العالم هي محاولة فاشلـة لان الذي سيفعل ذلك « لن ينتهي الا الى ما هـو عبث حتما » ذلك ان « الخلل الكامن في اسـاس الكيـان خلل ابدي لا مفـر منه .و « الا كان الكيان غير هذا الكيان.. وكـان العالم عالمـا آخـر ».

هذا هـو جوهر انسان يونيسكو كمـا عرضه الاستاذ « يوسفعبد المسيح ثروة » . وهو يطبق هذا الجوهر في بعض اعمال يونيسكو .. ليصل الى تقديم تصوّر فلسفي لعالم يونيسكو . ويعتمد في ذلك على اشارات لمارتن ايسلن ، فيونيسكو الذي يضج عالمه باللاانتماء ، ينطلق من خلفية فلسفية . فهـو ينتقل من بيداء العدمية متأمـلا الاشيـاء تأملا معكوسـا يبلغ به من الحدة ان يفكـر في « وجود نفسه وصعوبة تحديد هذا الوجود » انه يقول مثلا « انا موجود .. ولكن مـا هـذه الانا .. ان هذا شيء يصعب تحديده » . وهو يرفض « كل الاسبـاب والمسببات » اي انـه ينبذ العليـة بصورة مطلقـة . ويدعـو للشك في كل شيء ومناقشته . ويفترض الاستاذ يوسف اعتمادا على هذا ان هناك « صلة ما بيـن فلسفة يونيسكو وفلسفة سارتر » ، وهو مـا يؤيده « تحليل حالات الشعور في مسرح يونيسكو » . وهذا جميعـه يدفـع الاستاذ الباحث الى القولان « هذه المفاهيم مفاهيم وجوديـة صرفة ، ولو لم يختر لهـا يونيسكو هذه التسمية ».

والافتراض الذي وصل اليه الباحث ، لا يجبان يمر هكـذا بسهولة .وليس هنا مجال مناقشته ولكن مناقشة المنهج الذي اعتمـد عليه لتقديمه لنـا . ومن المؤكـد ان الفكرة قد عرضت بطـريقـة غير مقنعة على الاطلاق . وانه لم يعد يهتم كثيرا بتأصيلها كفكرة ، علـى الرغم مـن ان وسائل ذلـك كانت متاحـة في يديه ، فالوجوديـون ينثرون فلسفتهم في أعمال ادبية ، ومسرحية بالتحديد ، ويونيسكـو كاتب مسرحي ، لكـن الباحث لم يعـن بان يعرض فكرتهمن خلال المقارنة الطبيعيـة بيـن انسان يونيسكـو الشقي ، وانسان سارتر ، مثلا .. واكتفى بأن القى بالفكرة ـ رغم اهميتها ـ في وجوهنا ومضى .

حوار ـ عربـي ـ سوفييتي ..

ولعل الحوار العربي السوفييتي ، هو ابعد ابحاث العدد عن التعقيد ، الذي بلـغ ذروته في بحث الاستاذ شكري ، وتجنبه الاستاذ يوسف بصعوبة بالغة . وهو في نفس الوقت مواجهة ـ غير مقصودة ـ للكثير ممـا ورد في البحثين الاخرين .

ويتميز العرض الذي قدمته الآداب بالقـدرة على التلخيص والتركيز ، بحيث يمكن القول بانه قدم بالفعل نموذجا للقضاياالرئيسية التي يمكـن ان يدور عليهـا مثل هـذا اللقاء الهام. وبعض هـذه القضايا له اهميته القصوى ، وبعضها مسائل اجرائية تتعلق بتنظيـم العلاقـة بيـن الكتاب العرب والسوفييتيت وهذه تخرج عن نطـاق المناقشـة .

وقد انقسم الحديث في هذه الندوة الى ثلاثة موضوعاترئيسية. اولهـا : ملامح عن الادب السوفييتي وقد تحدث فيه اناتولي‌سافرونوف وثانيهـا ملامح عن الادب والثقافة في لبنان . وتحدث فيها ميشـال سليمـان وادوار البستاني وميشال عاصي . وثالثها : حـول اشكـال العلاقات الثقافيـة وقد تحدث فيهـا الدكتور سهيـل ادريس . ورابعهـا : عـن الشعـر والقصة .

ومما يلفت النظـر في هذا الحوار الدسم بيـن الادباء العرب والسوفييـت :

● ذلك الالتقاء الفكري حول بعض الاتجاهات العامة فيالسياسة الدولية ، وبعض المنطلقات الفكريـة الاساسية . وهو مـا عبر عنـه البيـان الصادر عن الندوة ، في تأكيده « ايمـان المجتمعين بـأن الادب التقدمي وثيق الصلة بحياة الشعب وبامانيه ومتطلباته » ولذلك فقـد « اولوا اهميـة كبيرة لادب النضال الوطني ولدور الادباء فـي

دعم الكفاح العادل الذي تخوضه الشعوب العربية ضد الامبريالية العالمية والصهيونية » . وعبر عنه الدكتور ميشال عاصي في تأكيده ان « الابداع الثقافي في لبنان ليس حتما وليد اليد اليسارية او التقدمية فحسب ، ولا هو مستحيل على اليد اليمينية بمقدار ما هو قبل كل شيء في اصالة اليد التي تبدع أكانت في هذا الاتجاه ام ذاك » .

● كذلك يلفت النظر فيه ، ان تعرف الادباء السوفييت على الادب العربي يبدو انه غير كامل ، او يتم من خلال دروب ليست مستقيمة تماما . وقد ازعجني جدا قول كامل ياشين مثلا ، ان « الف ليلة وليلة » . « مفخرة آداب الشعوب العربية » . وعلى الرغم من ان الاسماء التي ذكر كامل ياشين انها معروفة في الاتحاد السوفييتي، ليست هي كل القائمة المعروفة لهم هناك ، فان التصاقها بالذهن يدل على انها الاسماء التي يعرفها الادباء السوفييت . والاسماء ليست ممثلة للادب العربي تماما . ثم انها تخلو من الاسماء اللامعة في مجال الكتابة المسرح . والنقد الادبي ، والفكر الاجتماعي والسياسي .

● وقد اشار سافرونوف في عرضه لبعض اتجاهات الرواية في الاتحاد السوفييتي الى ذلك الاهتمام الواضح بتجربة المقاومة السوفييتية للغزو النازي . وقال « ان بعض النقاد قد وصفوا تراجعنا امام الالمان ومعاناة شعبنا خلال الاحتلال ، اما كيف هجمنا فيما بعد وطردنا النازيين ، واستعدنا اراضينا ، وحطمنا الآلة العسكرية النازية، فهذا لم نصوره بعد كما ينبغي »وفسر سافرونوف ذلك بأن « الآلام التي عاناها شعبنا كانت عميقة وفاجعة الى درجة انه لا يمكن الا التعبير عنها لما فيها من تراجيديا مؤثرة ، وبطولات اشبه بالمعجزات » .

ويبدو ان المسألة بالنسبة لنا ستكون كذلك ، وعلى الرغم اننا لم نخض بعد معركة تحرير وانتصار ، فان هزيمة حزيران الفاجعة ستظل تلهم الاجيال الجديدة من الادباء والفنانين ، اكثر مما ستلهم المعركة . ليس هذا فقط بل ان موقف المتفرج الذي يقفه معظم ادبائنا وفنانينا من المعركة سينعكس بالطبع على ما شاركوا فيه فقط . نحن شاركنا في الهزيمة ، ولن نشارك في النصر . قال سافرونوف « انا كنت جنديا .. واشتركت في معارك القفقاس » . من يستطيع من ادبائنا وشعرائنا ان يزعم ذلك لنفسه فيما بعد . « انا اشتركت في احداث الهزيمة .. لكني لم اصنع النصر » ! يبدو ان هذا هو كل ما يستطيع جيلنا ان يزعمه لنفسه .

● وقد اضطر الادباء السوفييت الى اعادة طرح قضية حرية الاديب والتزامه من خلال القوالب التقليدية المعروفة ولم يضيفوا جديدا لذلك . فقد اشار سافرونوف الى ان « بعض المفترين والساذجين في الغرب ، يقولون طالما ان الاقتصاد عندكم مبرمج، فان الادب كذلك مبرمج ايضا .. هذه تفاهة » . اما سليمانوف فقد اعترف بان الاتحاد السوفييتي ليس فيه « حرية كلمة » لدعاة الحرب والعنصرية والصهيونية والعداء للشيوعية ، هذا النوع من الحرية نحاربه وهذه المحاربة نراها عدلا . وان كل من يقف ضد حزبنا وضد صداقتنا مع الشعوب فلا يحق له الانتماء الى اتحاد الكتاب . فنحن لا نسمح ابدا بتسميم ارواح اطفالنا » . وقد اشار سليمانوف في هذا الصدد الى تأثير المناخ البرجوازي العالمي على بعض الكتاب السوفييت اذ يدفعهم الى الرغبة في « ان يصبحوا معروفين بسرعة في الخارج، فيقعون في شباك الدعاية الغربية التي تستخدمهم لمصالحها ، والكاتب الذي يقع في هذه الشباك يدفع الثمن من سمعته لانه يتحول الى سلاح رخيص بيد الاعداء » .

بيد ان طرح القضية بهذا الشكل ـ رغم صحة خطوطه العامة ـ يتضمن نوعا من الاستسلام لافكار سهله ، اطارها العام صحيح، لكن تفصيلاتها ليست عميقة كما ينبغي . وهناك حلقة مفقودة باستمرار عند طرح هذه النظرية التي اصبحت معروفة جدا ، وبرغم سهولتها فهي ايضا غير مفهومة ، لانها لا تحقق باستمرار اهدافها المرجوة ..

هذه بعض القضايا العامة التي يطرحها اللقاء العربي السوفييتي .. بالاضافة الى مجموعة من القضايا التي عرض لها الجانب اللبناني في الندوة ، والخط العام لما عرضه يؤكد ان هناك نعمقا وفهما للعديد من القضايا التي عرضها الكتاب اللبنانيون ..

* * *

اغرب شيء بعد هذا ان عدد حزيران من الآداب ، قد خلا من اشارة الى « حزيران » ! وينبغي ان اعتذر في النهاية عن شيء لا ادري ما هو بالضبط .. ان تقرأ عدد حزيران من الآداب وان تكتب عن ابحاثه وانت قاهري . ذلك شيء صعب . اصعب ما يكون . ذلك اننا نحن القاهريين نعيش زمن الضحك السعيد . نضحك بلا ضابط ولا رابط . تفككت انسجة الرأس . ارتبكت خلاياه . عيوننا في اقفيتنا . اعضاؤنا الجنسية في جباهنا . لا نتكلم لكننا ننبح . احيانا نموء . وقد نمشي على اربع في احيان اخر ..

اذا طلب منا ان نقرأ وان نكتب . من ذا الذي سيبكي. يلطم الخدود . يشق الجيوب . من ذا يستصرخ الموتى وشياطين العبث والجنون ؟. من ذا سيفعل ذلك اذا تفرغنا نحن لقراءة الابحاث والكتابة عنها؟ .

قلبت العدد بين يدي . قلت ان غلافه أصفر . أليس عدد حزيران ؟. اتلك هي الرمال التي اكلت اللحم الحي ؟ . انه هو الموت يزحف بشحوبه على اعمارنا الغضة ؟ .لا هذا ولا ذاك . خلا العدد من بحث عن حزيران . هكذا تمضي الفجيعة دون ذاكر. فوا حسرتا للذين فقدوا اعمارهم في الصحراء . ومضوا دون ان يتذكرهم ذاكر . من ذا يذكر موتى في لعبة تافهة . شجار في الطريق . عبث دولي . شيء حدث في زمن الضحك السعيد !

طويت عدد حزيران من « الآداب » في عدد الرابع من حزيران من « الاهرام » القاهرية . فيه محضر تحضير الارواح الشهير . صرخت خلاياي الداخلية . طالبتني ان استحضر ارواح عشرين الفا من القتلى اكلتهم رمال سيناء . فيهم اصدقاء لي معهم ذكريات ومودات. تعالوا . بوحوا بالسر المطوي . من قتلكم ؟. من اغتال مودانا وذكرياتنا وضحكاتنا ؟. قولوا من ذا يملك القدرة على تحليل شيء ؟ وسيط من كلية العلوم . جناح يساري في السلطة . وفريق اول يستعد لمحو الهزيمة . وجناح طائر ملقى في الصحراء . وجناح طائرة . وجناح في مستشفى الامراض العقلية .. أليس الجنون هو المهرب من كل هذا . تكنولوجيا . ايديولوجيا . ماركسية . ديموقراطية . ارز وملوخية . بيروقراطية . تكنوقراطية . معتقلات . سجون . تعذيب . برجوازية . علبة الكلوباتية راقصة لولبية . ارواح . اليكترون . الخامس من حزيران » .

صباح الخير يا قراء اهرام الجمعة !

مضى حزيران دون ذاكر .. حتى على صفحات الآداب ! (*).

صلاح عيسى
القاهرة

(*) تعليق التحرير : اننا نفهم صرخة الكاتب بالنسبة لهزيمة حزيران ونشاركه تمزقه ولوعته على ضحايا ذلك الاسبوع الاسود من تاريخنا الحديث . ولكننا نود ان نشير ان جميع اعداد « الآداب » التي صدرت بعد الهزيمة كانت مكرسة الصفحات للتعبير عن هذه المأساة وآثارها في النفوس شعرا وقصة وبحثا . غير ان اسهام المجلة على هذا الصعيد كان يتسم بالايجابية حين يحاول ان يقدم الانتاج الادبي الذي يعبر عن المقاومة والصمود ويخلف مرحلة اليأس والعويل فيكون له دوره المرصود له في معركة التحرير والبقاء .. ولعل الناقد الكريم لم ينس مقالته النقدية في العدد الرابع (نيسان ـ ابريل) من هذا العام حين اخذ يرصد ، في ابحاث « الآداب » المنشورة في العدد الذي تناوله، « الظاهرة الحزيرانية » التي لم تكن قاصرة في الواقع ،على ذلك العدد وحده والتي نؤمن ان من رسالتنا تجاوزها الى ما يشدد العزائم ويعمق روح المقاومة ويقضي على بذور الهزيمة والانهزامية ...

القصص

بقلم شوقي خميس

ما يحدث في ادبنا القصصي الان شبيه بما يحدث للانسان الذي يتخطى مرحلة الطفولة ، مرحلة التحديد والنماذج الثابتة والقيم المقدسة . فما نلاحظه على الجديد الجيد في ادبنا المعاصر ، ومنه قصص العدد الماضي من « الآداب » ، انه لا يقدم حلولا وانما بحثا عن الحلول ، لا يجسد تفسيرا وانما دعوة الى المشاركة ، لا يبني ولا يهدم ولا يسرد ولا يصف ، وانما يكتفي بحمل الحلم بالبناء ، وغبار التهدم ، والحنين المتشبث ببراءة الامس التي لا تستعاد ، والطموح الجامح لاسر التعريف بما هو دائم الفرار والذوبان في فوضى الحياة والاشياء .

ببساطة ، لم يعد يؤمن القصاص الناضج الان ـ ان كان ممن يؤمنون اصلا بجدوى الحوار بين البشر ـ لم يعد يؤمن بقدرة الفن على تغيير واقع الحياة والانسان . هذا الانسان المعرض خصوصا في بلادنا لاشد المؤثرات تناقضا . ابتداء من الفكر الاسطوري القديم الذي بصبغ الكثير من عاداتنا على نحو بيّن او خفي ، حتى تلك القيم الفاسدة التي تشيعها اغاني الاعلانات في الراديو والتليفزيون.. الخ . لم يعد يؤمن الفنان بقدرة الفن على تغيير انسان العصر الذي يتحكم في اقباله على الاشياء قانون اقل الجهود فيطلب المتعة والمعرفة باقل التكاليف ولا يبقى الا حيز شديد الضيق لكل فن او ادب يتطلب استيعابه جهدا من المتلقين . وفي نطاق هذه الصعوبات التي تمثل نسيج الوجود العصري نزل الفنان من علياء حلمه الذهبي بتفسير وتغيير العالم وتمثل امامه حلما آخر ، ربما أصغر حجما، ولكنه بالتأكيد اكثر تحديدا وفاعلية ، وصار مثال فنه الجديد توسيع نطاق التجربة الانسانية وخلق الجو الملائم لاحداث التغيرات التي يشترك العلم الحديث والسياسة والاقتصاد .. الخ في طلبها وخلق الجو الملائم او المعوق لتحقيقها .

ولقد اصبح على كاتب القصة الجديدة ان يبحث عن طرق جديدة للنفاذ بصوته الجديد الى وجدان الانسان في مثل هذا الواقع المعقد بعد ان اثبتت الاشكال التقليدية عن القصة عدم قدرتها غالبا على الصمود في المنافسة على ارضاء ربات المتعة الرخيصة اللاتي يتحكمن في ذوق الانسان المعاصر وقد احتللن الجدران وواجهات العرض والشاشات الصغيرة والكبيرة والاثير واغلفة المجلات . لجأ بعض كتاب القصة الجديدة الى الشعر يستخدمون لغته الخاصة وقدرته على التركيز واستخلاص العنصر الجوهري من فوضى العالم ليسهل سبيل النفاذ الى وجدان الانسان المتعجل الذي تجذبه السرعة وتشده الغرابة كما فعل حيدر حيدر في قصته « اغنية حزينة لرجل كان حيا » . ولجأ آخرون الى مزج الشعر بالسخرية في مواجهتهم لعالمنا المتناقض الممزق فخلقوا بناء جديدا للصورة القصصية تهدم شكل الاشياء المألوف والمقبول لدى الناس لالفتهم له كما فعل « نصار عبدالله » في قصته المنشورة في عدد « الآداب » الماضي حيث تبدو لنا صورة « الاتوبيس » مختلفة تماما عما نألف وان ارتبطت على نحو عميق بما نشعر به ويحرقنا ليفر بعد قليل مخلفا في نفوسنا هدوءا وعريا وعطشا ويأسا اشبه بهدوء وعري وعطش وبأس الصحاري . وقد يلجأ القصاص مثل « توفيق زياد » الى الحدود القصوى لمشاعر الانسان حيث تختلط الحقائق بما يشبه الجنون ليكشف لنا من خلال ذلك حاجات الانسان البسيطة الاصيلة بعد ان شوه الجنون اللاانساني والطغيان اعين البشر ففقدت قدرتها على الابصار السليم . والى جوار هذه الطرق الجديدة يحقق الشكل القديم التقليدي في كتابه القصة القصيرة انتصارات فنية بين حين واخر يؤكد انه لم يفقد قدرته نهائيا على التأثير والعطاء ، يثبت ذلك على المستوى النظري ذيوع العديد من قصص عظماء الكتاب التقليديين لدى الناس كاعمال فنية ملهمة ومؤثرة وليست بوصفها وثائق تاريخية في الفن مما لا يهتم به سوى المتخصصين ، كما تثبت الكثير من اعمال القصاصين الجدد امكانية الشكل التقليدي على التواجد الى جوار الاشكال المستحدثة كما سوف نرى في قصة « سليمان فياض » التي تتميز رغم شكلها القديم بجدة الموضوع واصالة التناول .

خرج النضج الذي وصفناه بالكتاب المبدعين من مرحلة الاستقرار الطفولي الى مرحلة البحث والمشاركة في مواجهة الحياة بتواضع الحكماء لا بغرور الصغار واحلامهم الذهبية المراهقة . وهذا النضج في الابداع يتطلب نضجا موازيا في النقد الادبي والاعانينا تناقضا هزليا عقيما ـ وهذا ما يحدث في الغالب حتى الان ـ بين نقاد يتصورون بطفولة انهم يمتلكون الحقيقة ويطالبون الادباء بغير ما يستطيع ان يقدم الادب وبين كتاب جادين يقدمون بتواضع كل ما يمكن تقديمه وهو حتى الان ، والى اي مستقبل يمكننا تخيله ، نسبي بالضرورة . فلننظر في قصص العدد الماضي وسنجدها تقدم الكثير اذا لم نزنها بمعيار الفن المطلق والخالد ونحن لا نعلم من الذي يضمن اطلاقه وخلوده:

« اغنية حزينة لرجل كان حيا » لحيدر حيدر

في رحلة خرافية كرحلة الاخضر ، لا تظل الاحداث والكلمات نفسها ، وانما يكتسب بعدا رامزا يدعمها بحياة اكثر اتساعا وعمقا. ويعلو السرد على وظيفته العادية في الاخبار والتأثير ، ويتحول الى ما يشبه « المونولوج » الشعري بحكي الكاتب .

.. حتى الظهر لم يلق الاخضر اثرا لعدو ، كذلك لم يلق اثرا للثوار . كانت البراري والغابات .. يرين عليها صمت . كان الراعي يجلس مطمئنا فوق صخرة ... لم يكن يحمل بندقية .. كان يدندن اغنية شعبية عامرة بالحب والحزن ـ والحطابون .. هم ايضا بلا بنادق ـ سأل الاخضر الراعي عن اسم الجبال وهذه البلاد فابتسم الراعي وهو يخبره وساله : من اي البلاد جاء الاخ ؟ قال الاخضر : غريب .)

غريب ؟ تتفجر مأساة اغتراب الاخضر عن عالمه منذ نطقه بهذه الكلمة فمهما كان اختفاء الاعداء مدهشا له فانه لا يدهشه بقدر اختفاء الثوار من الوطن . ذلك هو الشيء الذي صيره غريبا في وطنه . لم يتصور الاخضر الا ان يظل الثوار ثوارا حاملين بنادقهم مشعلين نارهم، متوثبين كالنمور ضد الخديعة والتشويه والصمت الذي يرين على البراري . ضد الجور الذي يقصر حظ الراعي على تلك الاغنية الشعبية العامرة بالحب والحزن . لم يتصور الاخضر ان يحدث العكس فيختفي الثوار فلقد كان من المحاربين الذين قاتلوا من اجل حرية البلاد وحلموا بنعمى التحرر . انه ينهض من خندقه او قبره مزودا بناره وحلمه المشتعل ليشهد غربته في المدينة حيث الاب والابن يشتبكان في معركة وحشية بينما يتفرج الناس بالامبالاة ويتراهنون على من يصرع الاخر ولكم ادهشه انه لم يشهد اثرا لجنود الاعداء ـ لقد تحرر الوطن اذن ـ ولكن أهذه هي المدينة التي حلم بها الثوار والمحاربون والشهداء؟ مدينة المقاهي والحواة والتجار ؟ مدينة تحكمها الهة الجنس وبتسول الفتى القوي وتحجب الابنية والمخازن واصوات الازاد الجبال والنيران ويبقى كل ما هو انساني فيها هائما مشتعلا وحيدا يبكي كروح الاخضر . أكان كل العناء والكفاح والموت من اجل هذه المدينة ؟ مدينة الانسان الوحيد والبكاء والروح المقهورة ؟! بهدوء يرفض الاخضر كل هذا الزيف فسيعود وينزل في الحفرة التي نهض منها ـ وقد اصبحت الان حفرة فحسب ولم تعد خندقا ـ ويتمدد على ظهره يتأمل السماء والنجوم المضيئة هناك ثم يغمض عينيه كطفل متعب وينام . وتنتهي قصة حيدر حيدر الرائعة الاشبه بمونولوج شعري جار ، دفاع عن الثورة وادانة لكل ما يشوه وجهها الخالد .

« الغزوة الواحدة بعد الالف » لسليمان فياض ما أشد التشابه بين قصتي حيدر حيدر وسليمان فياض . كلتاهما تجسد بطلا يحلم

بحرية ما ، بصبر غريب عن عالمه ويعود في الختام وحيدا مهزوما تكشف لنا غربته وهزيمته صورة الاختلال الذي يواجهه .

وكما يدرك « الاخضر » بطل « حيدر حيدر » صورة غربته في تلك « الروح ـ التي ـ تتوه وحيدة في هذا العالم » يدرك «حسن» بطل « سليمان فياض عدم جدوى المزيد من الاحتمال ويقرر ان « عليه ان يرحل في الصباح ، على اول قطار ،قبل ان يراه احد » .

ولكن اذا تشابهت النهايتان فان البداية تختلف والنموذجان يختلفان . وبينما يتجسد في « الاخضر » شوق آلاف من الرجال حاربوا معا واستشهدوا معا ، يبدأ حسن خطاه منفردا . هكذا تبدأ القصة : نزل من القطار منفردا ـ فاذا كان الحلم الذي خطاه هو نفس الحلم المنبث في صدور اخرين الا ان عوامل تفرده التي تعزله عنهم ، تتأكد وتنمو طوال الوقت الذي يحارب فيه من اجل تحقيق الهدف المشترك . وقد تتحول تلك العوامل احيانا الى ميزات تدعم كفاحه مثل امتلاكه على نحو ما للدار التي تصلح لان تكون مقرا للمشروع . ومثل انتسابه الى اسرة ذات شان في القرية قادرة على حمايته من انتقام الاعداء . وهي نفس العوامل التي تجعل منه بطلا فرديا بالاضافة الى انعزاله السنين الطوال عن الحياة في قريته .

ويتصاعد الصراع في نفس «حسن » على نحو اعنف كثيرا مما يتم به في الخارج شان البرجوازي الصغير الذي يرهقه غالبا حينما يتعرض لموقف ثوري ذلك التناقض الحاد بين وضعه وعلاقاته الاجتماعية وبين حلمه بالعدل للجميع . ولكن « حسن » ذلك البطل المحوري لقصة « سليمان فياض » ليس مجرد برجوازي صغير يخضع في استسلام منطقي لضرورات وضعه الاجتماعي وانما هو بطل برجوازي متمرد حالم يعي على نحو حاد التناقضات بين جذور وضعه الاجتماعي ومثاليات الرسالة التي تحركه . وهذا الوعي هو ما يرتفع بقيمة بطلنا من مستوى الاستسلام للواقع الى مستوى التمرد ،وهو ما يرتفع بالقصة ايضا من مستوى تمجيد البطولة البرجوازية التي سرعان ما تتوقف عن المغامرة عندما تتعرض مصالحها لخطر جدي الى مستوى النقد لكل ما يحد من انسانية الانسان . وليس هذا فحسب ما تتكشف عنه قصة « الغزوة الواحدة بعد الالف »،فما اشد خصوبة الوجه الآخر ، ذلك العالم الذي غزاه حسن او الذي لم ينجح في غزوه ، ذلك العالم الساكن في ظاهره بينما يموج داخله بصراع لا يهدأ بين القوى التي تحكم بالظلام والقوى التي تفر في الظلام والقوى التي تبحث في الظلام عن صباحها والقوى التي تكتفي بالحلم والقوى التي تياس عند اول فشل .

لم تنتصر الغزوة الواحدة بعد الالف ، لم يحقق « حسن » انتصارا وهميا وعاد خائبا كما يجب ان يعود . ولكن ضوء الحقيقة كضوء النجوم لا يمكن ادخاله التسعيرة ولا تمكن المتاجرة، وانما يمتلكه الانسان بمجرد رؤيته الى الابد ولقد عاد « حسن » بعد ان اشعل في عالم مأساته شعلة قوية من ذلك الضوء .

« عيون البقرة الميتة » لتوفيق زياد

مفاجآتان تسعدان قارىء قصة « توفيق زياد » . اولهما ان نعرفه قصاصا ناضجا متميزا بعد ان عرفناه شاعرا ممتازا . وثانيهما طبيعته القصصية الساخرة القريبة من القلوب والتي لونا قل الاقبال عليه بعد ان تفشت مراثي الارض الغراب كرد فعل ساذج لما الم بامتنا من كوارث . وكما لم يستسلم « توفيق زياد الشاعر لنوازع الاشفاق البكائي على الذات وظل صوته الشاعر قويا هادرا يمجد المزيد من النضال ويدعو له ، يخرج علينا توفيق زياد القصاص ساخرا على لسان بطله الفلاح البسيط المتشبث بالارض، ساخرا من كل احلامنا الكبيرة والصغيرة عندما يضع عذاب ذلك الفلاح وجنونه واحتماله في مركز الكون ، في مكانه الطبيعي ، فهؤلاء الكادحون البسطاء مثل (ابو سعده) الذي كفر عندما لم يتحقق وعدالسماء والذي يتحمل الكارثة رغم كل شيء ولا يفقد عقله في النهاية ، هؤلاء الكادحون البسطاء مثل الشيخ (سعيد القبلاوي) الذي رمى نفسه امام (تركتورات) الفاصبين مدافعا عن الارض التي لا يملك شبرا منها ـ هؤلاء الناس البسطاء لهم وسائلهم لتحدي الكوارث ، تكشف لنا قصة توفيق زياد منها عن ذلك النبع القديم ، نبع السخرية النقية الحلوة المتحدية الهازئة بكل شيء الا عذاب الانسان . فعندما يدرك الشيخ القبلاوي حقيقة عذاب (ابو سعده) يصمت ويأخذ في معاونته في هدوء ورقه .

« تأملات عادية حول حادث يومي » لنصار عبدالله من قصة « نصار عبدالله » نلتقي بنوع اخر من السخرية نابع من الذهن،فبينما كانت السخرية في قصة « توفيق زياد » وسيلة يتحدى بها الانسان ما يقهره ويعذبه تصبح في قصتنا هذه وسيلة فنية للكشف عن اختلال الواقع الذي يقهر الانسان بحكم التعود .

يعمد نصار عبدالله » الى هدم الصورة المرئية للواقع واعادة بنائها على نحو يكشف زيف ما ألفناه ويدفعنا الى اعادة التفكير فيه . فحادث « الاتوبيس » الذي تتناوله قصته يكتسب طابعا رمزيا يتخطى به دلالة الخاصة وينفتح على عالم اكبر من عالم الاتوبيس والحادث ، ويتم ذلك منذ ان يبدأ القصاص في السرد واصفا لحظات ما قبل الحادث حيث لا يمكن تفسير الصور التي ترد في السرد مثل (انخلع ذراع الراكب بين ايديهم . فالقوا به على الارض) الا بوصفها تجسيدا لرؤية الكاتب الخاصة للعلاقة بين ذلك الركب والعابرين الذين انتزعوا ذراعه والقوه على الارض .

وينمو الرمز ويصل الى قمة نضجه في تلك الاجراءات المعقدة والمؤلمة والمضحكة التي تقوم بها فئات المسئولين المتعددة لمعالجة الحادث بينما يكاد يختفي صوت الانسان المقهور في الضجيج . ذلك الانسان الشبيه « باتوبيس » يمكن ان يقضي عليه خطأ صغير غير مقصود .

القاهرة — شوقي خميس

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	٤٠٠
من ادبنا المعاصر	د. طه حسين	٢٥٠
سارتر والوجودية	د .م البيريس	٢٠٠
تجديد رسالة الغفران	خليل هنداوي	٢٥٠
سيمون دوبوفوار	فرانسيس جانسون	٦٥٠
بابا همنفواي	أ . ا . هوتشز	٦٠٠
الادب المسؤول	رئيف خوري	٤٠٠
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	٣٥٠
وتبقى الكلمة (دراسات نقدية)	صلاح عبدالصبور	٢٥٠
بين آدم وحواء	د . زكي مبارك	٢٥٠
التكسب بالشعر	د . جلال الخياط	٢٥٠
محمود احمد السيد		
رائد القصة الحديثة في العراق	د. علي جواد الطاهر	٤٠٠
مشكلة الحب	د . زكريا ابراهيم	٥٠٠
شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة	٢٥٠